هل يخشى الحاكم العربي شعبه

بقلم: أيهم السهلي/ صحفي فلسطيني...

منذ شنّت إسرائيل حربها على الشعب الفلسطيني في قطاع غزة، يستوقف المتابع المشهد الشعبي في العالم العربي، الراكن والساكت عن المجزرة؛ والرسمي المتآمر على الشعب الفلسطيني وحقوقه ومقاومته، والمقاومات الأخرى في المنطقة. سكوت أو خرس بات واضحاً جلياً لا يمكن تغطيته، رغم المحاولات الرسمية لإظهار العكس، عبر البيانات والخطابات التي قيلت وتقال في المنابر العربية والدولية. والسؤال ها هنا، لماذا تحاول «المؤسسة» الرسمية في الدول العربية إظهار العكس؟ هل تخشى من شعوبها؟إن أجبت برأيي الصريح، فستكون إجابتي اليقينية «لا»، لكن الكتابة تستدعي الظنية، لذا، لا أظن أن نظاماً عربياً واحداً يقيم حساباً لشعبه، أو يهتم لأمره ولتطلعاته. فجميعهم يتعاملون مع شعوبهم بعقلية الإقطاعي المستثمر بالثروة، والذي يشعر بأن البلد بما فوق أرضه وتحتها ملكه، وأن الشعب مستعبد له، ويحق له أن يفعل ما يشاء، بلا حساب. وفي ما لو جرّب الشعب مخالفة القواعد المرسومة له، فالسجون مشرّعة على الدوام، وفي أحسن الأحوال، النفي خارج «الإقطاعية» متاح. وإلا، إن تمرّد الشعب أكثر، فالموت عن طريق القتل سهل في هذه الإقطاعيات، بل أسهل من طرفة العين.

هذا حالنا باختصار وتكثيف شديدين. إذاً، لماذا تجرّب الرسمية العربية إظهار أنها متفاعلة مع الحدث، وأنها لا تقبل بما تفعله إسرائيل في فلسطين؟ أجرّب قبول فكرة أنها تخشى من شعوبها، ولكنني أتذكّر الواقع، وأتذكّر سنوات للوراء، فأجدني لا أتقبّل ذلك، لما لهذا الأمر من دلائل عدة، تدحض فكرة احترام الأنظمة لشعوبها.

وفي محاولة أخرى للإجابة، أذهب للتفكير في الشعوب التي لم تخرج للتظاهر غضباً، فالمجزرة في قطاع غزة قريبة جدّاً من كل بلدان العرب وشعوبها، فصرخات المكلومين في فلسطين مفهومة للعرب باللغة، وبحجم الجريمة، وبالفوقيّة التي تبديها إسرائيل على الدم الذي تستبيحه. يشاهد المواطن العربي كل هذا، إمّا عبر التلفاز، وإمّا على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي (رغم الحجب، المعلومات متوافرة)، ولكن المصيبة، كما أظن، أن حديث المجزرة ليس «ترند» وليس من أولويات اليوم لدى شعبنا العربي، وهو لا يكاد يغري الشارع بالحديث، ربما لأنه يشعر الناس بقلة الحيلة، بالضعف، يشعرهم بالعار. هل في الأمر تجنٍّ على شعوبنا؟ لا أظن، ولم أصل إليه بعد!

هل من المعقول أن يُقتل بعض الشعب العربي، بينما باقي الشعب لا يدري، أو يدري ويلتزم الخرس ولا يخرج حتى في تظاهرة؟ وهي لن تقدّم ولن تؤخّر في حياة الناس في فلسطين، ولكنها ستعطيهم معنويات بأن بقية جسدهم الممتد من المحيط إلى الخليج موجود، يشعر بهم، ويتداعى لهم. طبعاً من المعروف أن الحكومات العربية هي التي تمنع هذه التظاهرات، وتمنع هذا النوع من التجمهر، مرة أخرى، هل لأنها تخاف من شعوبها؟ هنا ربما، ربما نعم، تخاف من صوت وهتاف يهتف ضدها، ويذكّرها بالذي لا تريد تذكّره، الشعب الذي تمرّد يوماً، وقال «لا». فحين هب نسيم «الربيع» قامت الشعوب، وقالت «لا»، وتظاهرت رغم أنف حكوماتها، وقالت ما أرادت، مع أنها لم تفلح في إكمال المهمّة، وعادت الأمور أسوأ ممّا كانت، إلا أنها قامت في يوم من الأيام.

واليوم، بينما تقتل إسرائيل بهذه الوحشية، وتدمّر، ولا تسأل عن أحد، أمعقول أن عربياً لم يعرف بعد أن الشعب الفلسطيني بصموده يحمي الأمّة كلها، والمقاومة الفلسطينية واللبنانية واليمنية، تحارب عن الأمّة كلها؟ أمعقول أن عربياً لم يدرك بعد أن إسرائيل ستحكمه وبلده إن انتصرت في فلسطين؟

ربما بين الشعب من لا يعرف، رغم يقيني أن الحس الحقيقي لشعوبنا يميل حيث الحق، ولكن في الإجابة عن المعقول واللامعقول، فبلى الحاكم العربي يدرك ويعرف ما يفعله الشعب الفلسطيني، ولكنه يدرك أيضاً أنه بات محكوماً من إسرائيل وأميركا، من كثرة ما فرّط وتنازل وسكت. لذا هو مكمل في الانصياع، وسينصاع أكثر، ويسلّم ويطبّع باسم «إقطاعيته»، مع إدراكه أن شعبه لا يريد هذا التطبيع.

ونحن العرب، الشعوب أقصد، مع قبولنا واستمرارنا بالسكوت والهوان، ستكمل بعض بلادنا رهينة بيد حاكم تحكمه إسرائيل، وها نحن نؤكد يومياً ما ذهب إليه إبراهيم اليازجي حين قال:

«ألِفتُم الهون حَتّى صارَ عِندَكُمُ... طَبعاً وَبَعضُ طِباعِ المَرءِ مُكتَسَبُ

وَفارَقَتْكُم لِطول الذُلّ نَخوَتكُم... فَلَيسَ يُؤلِمُكُم خَسفٌ وَلا عَطبُ».

وما دام أن الحاكم العربي يراهن على هزيمة المقاومة، لأنها متمردة و«تصدّع رأسه»، لا ينتبه ولا يضع احتمالاً بأن المقاومة قد تنتصر، وقد فعلتها في لبنان سابقاً. ولا ينتبه إلى أن أحد أقوى جيوش العالم، بعد 8 شهور من القتال، لم ينتصر، لا عسكرياً ولا سياسياً، والأمور في العالم تنقلب عليه يوماً بعد يوم، وهي تقول بالفم الملآن «كفى» (لم تقلها في شوارع العرب، إلا اليمن).

إنّ الحاكم الذي يراهن على هذه القوة الكبرى في العالم، مهزوم بلا شك، وسيقع في وقت لن ينجده فيه أحد، لأن الشعوب المنومة اليوم، ستستيقظ، «فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب».

سيخرج العرب إلى الشوارع يوماً، سيخرجون، وسيسقطون القاعد على عروشهم، وسيسقطون معه آلهتهم القاعدة في فلسطين، أو سيحدث العكس، يسقط الاحتلال بأمر فلسطين، فيسقطون في العواصم الأخرى.